

المحاضرة التاسعة

الأسرة المقدونية (867-1057)

(الجزء الأول)

العناصر التي تتناولها المحاضرة:

- بازل الأول (867-886م)
- ليو السادس (886-912م)
- قسطنطين السابع (912-959م)، ويتخلله حكم ألكسندر (912-913م)، ثم حكم رومانوس ليكابينوس (920-944م)
- رومانوس الثاني (959-963م)
- نففور فوكاس (963-969م)
- يوحنا تزيمنيس (969-976م)
- بازل الثاني (976-1025م)
- قسطنطين الثامن (1025-1028م) وبداية انهيار الأسرة
- زوي وأزواجها

تغيرت أوضاع الإمبراطورية خلال عصر الأسرة المقدونية بشكل كبير، حتى يصف المؤرخون عصر هذه الأسرة بأنه العصر الذهبي للإمبراطورية البيزنطية، حيث تفوقت الإمبراطورية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إلى جانب التقدم الحضاري الذي بلغ ذروته في خلال عهد هذه الأسرة، وحققت كذلك تفوق كبير في الجوانب العسكرية، وأحرزت انتصارات كبيرة في حروبها مع المسلمين والروس والبلغار، وتحولت سياسة الإمبراطورية تجاه جميع الأخطار الخارجية من مجرد الدفاع عن العاصمة وحماية حدود الإمبراطورية إلى سياسة الهجوم.

بازل الأول (867-886م):

تولى بازل بعد قتل ميخائيل الثالث، وتزوج من إيدوكيا الجارية المفضلة لميخائيل الثالث، والتي علونت بازل على التخلص من ميخائيل، وكان لبازل ابن يدعى قسطنطين من زواجه الأول، فجعله شريكا له في الحكم، وبعد أنجاب إيدوكيا لابنه ليو، قام بازل بتتوجه مع شقيقه قسطنطين، غير أن قسطنطين الابن الأكبر مات عام 879م، فقام بازل بتتويج ابنه الثالث الكسندر، أما الابن الأصغر ستيفن، فقد اختار له والده حياة الرهبنة، ودراسة العلوم الدينية والتدرج في المناصب الكنسية حتى أصبح بطريرك القسطنطينية.

وكانت الإمبراطورية قد بلغت حالة من الضعف، جعلتها في حاجة لشخصية قوية تستطيع أن تعيد لها الاستقرار، وبدأ بازل عصره بحل المشاكل الدينية مع بابوية روما، لأنه كان يحتاج دعم قوي لتثبيت عرشه، ولم تكن آراء البطريرك فوشبيوس توافق آراء الإمبراطور، ولم يكن يتوقع أن يجد منه الدعم في تثبيت دعائم عرشه، لأن فوشبيوس كان مقربا لميخائيل الثالث الذي قتله بازل، فقام بازل بعزل فوشبيوس، وأعاد البطريرك أجناشيوس، الذي كان شخصية محببة للبيزنطيين، وبذلك أعاد العلاقات الودية مع بابوية روما بعدما عزل البطريرك الذي تسبب في القطيعة، وتلقى الدعم الذي ينشده من البابا والبطريرك أجناشيوس، غير أن بازل استدعى فوشبيوس بعدما وجد أنه ظلمه بذلك الإستهبعاد، وخصص له جناح بالقصر الإمبراطوري، وعهد إليه بتعليم أولاده والإشراف على تربيتهم، وبعد موت البطريرك

أجناشيوس، أعاد بازل فوشيوس مرة أخرى إلى كرسي البطريركية واستمر في نفس الوقت في تعليم أبناء الإمبراطور.

وبعودة فوشيوس لكرسي البطريركية، عاد مرة أخرى برنامج الإمبراطورية في نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية، وكانت قد دخلت جماعات لا بأس بها من الروس والصقالبة في المسيحية، فاستمرت جهود البطريرك مدعوما من الإمبراطور، بالعمل على اتمام تحويل جميع هذه العناصر للمسيحية، فدخل جميع الصقالبة في المسيحية على مذهب الإمبراطورية، وكذلك بعض القبائل الروسية، ويؤكد بعض المؤرخين أن الإمبراطور بازل أجبر مواطني الإمبراطورية من اليهود على اعتناق المسيحية.

أما بالنسبة للبغار، فقد نشأت بينهم وبين الإمبراطورية علاقات صداقة ومودة، بعد أن استمر النزاع لفترة بين بطريركية القسطنطينية وبابوية روما على المذهب الذي يعتنقه البغار، وبعدما دخلوا في مذهب كنيسة القسطنطينية، زادت بينهم أواصر المودة، وقويت العلاقات الثقافية، حتى أن الملك البغاري أرسل ابنه سيمون إلى القسطنطينية ليتلقى تعليمه المدرسي والديني في البلاط الإمبراطوري، ويتلقى الثقافة البيزنطية.

وبذلك، أصبحت العلاقات الخارجية للإمبراطورية أكثر استقرارا نتيجة تحول البغار للمسيحية على مذهب الإمبراطورية، وتحول الصقالبة للمسيحية، وإقبال الروس عليها، ولم يعد أمام بازل عدو قوي سوى المسلمين، فبدأ باصلاح الأحوال الداخلية للإمبراطورية، ثم وجه كامل طاقته للحروب مع المسلمين.

ولأن بازل كان ملما بالأمور الداخلية للإمبراطورية منذ عينه ميخائيل الثالث في منصب القنصل، فقد بدأ حكمه **باصلاح الإدارة المالية**، إذ كان على علم بعمليات النصب والسرقة التي مارسها بعض موظفي الإدارة المالية، مستغلين حالة الشرود الذهني التي كان يعاني منها ميخائيل الثالث، وغيابه معظم الوقت عن متابعة الأمور، فأمر بازل بالقبض على المفسدين من الموظفين، وأجبرهم على إعادة ما نهبوه إلى خزانة الإمبراطورية، وقام بتطهير الإدارة المالية في العاصمة من جميع الموظفين الفاسدين والمرتشين، وامتد ذلك التطهير تدريجيا، وفي وقت بسيط لجميع الإدارات المالية في الأقاليم.

ومن الناحية الاجتماعية، **أبدى بازل الأول اهتماما كبيرا بطبقة الفقراء**، إذ وجد أن الطبقة الوسطى اختفت من الإمبراطورية، فازداد الأثرياء ثراء، وازداد عدد الفقراء بشكل ملحوظ، وأهتم بحماية صغار المزارعين من استبداد كبار ملاك الأراضي، ونتيجة لجهود بازل، حققت الإمبراطورية استقرارا اقتصاديا ملحوظا في السنوات الأولى من حكمه، وبدأ يتجه للقضاء على محاولات مناهضي الأيقونات للعودة من جديد، فشجع إعادة الأيقونات بقوة، ونشطت الحركة الفنية، بالتحديد بين الرسامين والنحاتين، ولاقت أعمالهم تشجيعا كبيرا من مقدسي الأيقونات، وعاد النشاط الفني والمعماري إلى ما كان عليه في عهد جستنيان، إلا أنه اختلف في أنه اتخذ الطابع البيزنطي، بينما كان يميل جستنيان للطابع الروماني، ولكن كل ذلك لم يوقف حركة مناهضي الأيقونات، فقرر بازل قطع طريق العودة عليهم مرة أخرى، واتخذ في سبيل تحقيق ذلك وسيلتين:

1. إعادة صياغة قوانين الإمبراطورية
2. القضاء على طائفة البولسيين

وبدأ على الفور بتكوين لجنة قانونية لإعادة صياغة قوانين جستنيان، بما يتفق مع المسيحية، وتجاهل الإكلوجا التي وضعت باسم ليو الثالث الأيسوري وابنه قسطنطين، لأنها كانت تعتمد على مناهضة الأيقونات، وتعتمد الإشارة لتحريم الأيقونات ووضعت عقوبات على معتققيها، ولذلك وقف العمل بقانون

الإكلوجا، وقرر اعداد كتيب بصفة عاجلة للعمل به، إلى أن تنتهي اللجنة من إعادة صياغة القوانين، وعادت اللجنة التي أعدها بازل لدراسة قوانين جستنيان كمرجع أساسي للقانون البيزنطي، إلا أنها استخدمت اللغة اليونانية بدلا من اللاتينية، وعدلت القوانين طبقا للمتغيرات التي طرأت على الإمبراطورية، ولم تتم المجموعة القانونية لبازل إلا في عهد ابنه ليو السادس.

ثم وجه بازل اهتمامه نحو الجهة الشرقية التي تعتبر معقل مناهضي الأيقونات، وساعده على ذلك انشغال الخلافة العباسية بالأحوال الداخلية المضطربة، فتوجه لمحاربة فرقة البولسيين، الذين تجمعوا بالقرب من الحدود الإسلامية البيزنطية، عند نهر الفرات وحتى أرمينيا، وتحالفوا مع المسلمين لحمايتهم من الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت تحاربهم منذ ظهورهم في القرن الثالث، حتى اضطروا للفرار من الإمبراطورية والسكن على الحدود، فاستغل بازل حالة الضعف التي مرت بها الدولة العباسية، وتعدد الحركات الانفصالية، وزيادة سلطة العناصر التركية داخل دواوين الدولة، وشن سلسلة من الهجمات على الجهات الشرقية بداية من عام 871م، فحقق نجاح كبير، وكانت أول هجماته موجهة للبولسيين، الذين أرسل لهم قوة كبيرة بقيادة كريستوفر، الذي تمكن من الانتصار عليهم، فخرب مدنهم، وهدم معقلهم، وقتل منهم أعداد هائلة، من بينهم زعيمهم نفسه.

(ينتسب البولسيون لبولس السميساطي أسقف أنطاكية في القرن الثالث الميلادي، وتذكرهم المصادر العربية باسم البياصة، وأحيانا البياق)

وتقدمت القوات البيزنطية بعد الانتصار على البولسيين نحو المدن الإسلامية، فحققت بعض الانتصارات، فاستولت على أرمينيا وبعض المدن التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، إلا أن القوات الإسلامية تمكنت من تحقيق الانتصار على البيزنطيين، فعادت القوات البيزنطية للعاصمة.

وما كاد بازل ينتهي من مشروعاته في الشرق، حتى وجد البابا وشارل ملك الفرنجة الغاليين، يستجدون به لمساعدتهم ضد تهديد دولة الأغالبة، فوجد بازل في ذلك فرصة لاستعادة أملاك الإمبراطورية في حوض البحر المتوسط، وبالفعل خرج بقواته غربا، وتمكن من تحقيق بعض الانتصارات على الأغالبة عام 880م، واستعاد بعض المناطق في جنوب إيطاليا.

ليو السادس (886-912م):

عاش بازل الأول السنوات الأخيرة من حكمه في حزن شديد لموت ابنه قسطنطين، ودخل في خلاف مع ابنه ليو، حتى مات متأثرا بأحزانه، وتولى من بعد ابنائه ليو وألكسندر، كان الحكم الفعلي لليو، الذي كان مؤهلا لتولي أمور الإمبراطورية، وقد ورث ليو إمبراطورية مستقرة اقتصاديا وسياسيا، وبمجرد ما تولى ليو السادس، عزل البطريرك فوشوس من كرسي البطريركية، وأمر بنفيه إلى أرمينيا، رغم أن فوشوس هو معلم ليو السادس والمشرف على تربيته وتأهيله للمنصب الإمبراطوري، ووضع ليو على كرسي البطريركية شقيقه ستيفن، الذي التحق بالتعليم الديني في الأديرة منذ الصغر، وكان في السادسة عشر من عمره حين تولى أمور البطريركية، وبدأ على الفور في العمل على إعادة العلاقات الطيبة مع بابوية روما، وأنتهت القطيعة بين كنيسة روما وبيزنطة التي تسبب فيها البطريرك فوشوس، فعادت العلاقات الودية لفترة مؤقتة، ولكنه في الحقيقة كان ودا ظاهريا، إذ ظلت الخلافات الجوهرية بين الكنيستين قائمة، يحاول كلا الطرفين التغاضي عنها، إلا أن الخلافات ظلت حتى تأتي القطيعة الدينية الكبرى عام 1054م.

وفي عهد ليو استمر عمل اللجنة التشريعية التي بدأت أعمالها في عهد بازل لإتمام قوانين الإمبراطورية، وبالفعل قامت باصدار مجموعة القوانين كاملة عام 892م، وتكونت المجموعة من ستين كتاب باللغة

اليونانية، في جميع فروع القانون المدني والجنائي، تم جمعهم في ست مجلدات، وعرفت المجموعة بالبازيلكا، نسبة للإمبراطور بازل.

وفي عهد ليو السادس الذي لقب بالحكيم، لعكوفه على الدراسة والبحث في عدة مجالات، واهتمامه بالعلوم والثقافة والآداب أكثر من الجوانب الحربية، تجددت بعض الأخطار على الإمبراطورية، فمن جانب عادت الهجمات الإسلامية على الممتلكات البيزنطية، ومن جهة أخرى عاد الصراع مع البلغار بعدما كانت الإمبراطورية قد شعرت بالراحة من انتهاء الخطر البلغاري، وكان ذلك بسبب العلاقات التجارية، وسيطرة التجار البيزنطيين على السلع والمنافذ التجارية، واثرت التجارة على الإمبراطور ليو السادس، فأمر بنقل مقر التجار البلغار من القسطنطينية إلى مدينة تسالونيك، وفرض عليهم ضرائب كبيرة، مما أضر بالمصالح التجارية البلغارية، واضر اقتصاد دولة البلغار، فراسل سيمون ملك البلغار (الذي تربى في البلاط البيزنطي في القسطنطينية) إلى ليو السادس لحل مشكلة التجار، ولكن ليو لم يستجب، فما كان من سيمون إلا أن حشد قواته عام 894م، وقام بالزحف على القسطنطينية وحصارها، فلجأ ليو السادس لمحافة المجر، على أن يقوموا بالضغط على قوات البلغار من المناطق الشمالية، إلا أن البلغار استطاعوا تحقيق انتصارات كبيرة، وكبدوا الإمبراطورية خسائر فادحة، ولم تتمكن قوات الإمبراطورية من التصدي للقوات البلغارية، فاضطر ليو لطلب الصلح، وتم عقد هدنة عام 904م، وانسحب البلغار من أمام القسطنطينية مقابل تنازل ليو عن مقدونيا وألبانيا لسيمون، ومن نتائج هذه المرحلة من الصراع مع البلغار، أن استغل الروس حالة ضعف القوات البيزنطية بسبب حروبهم مع البلغار، وتقدموا نحو القسطنطينية، وقاموا بحصارها عام 907م، ولكنهم لم يقوموا بأي هجوم، واسحبوا سريعا مقابل امتيازات تجارية واسعة في القسطنطينية.

مشاكل ليو الشخصية مع كنيسة القسطنطينية:

تضمنت مجموعة قوانين البازيلكا كل ما يتعلق بالحياة العامة في الإمبراطورية وتنظيم العلاقات الخارجية، وكل ما يتعلق بالحياة الشخصية للأفراد، وحياة الأسرة طبقا لما يوافق الديانة المسيحية، ومن الأمور الهامة التي تعرضت لها البازيلكا، مسألة الزواج والطلاق، ويبدو أن بازل الأول قد تعمد التصريح بالزواج الثاني والطلاق، لأسباب شخصية تتعلق به نفسه، إذ كان قد طلق زوجته الأولى وتزوج من إيدوكيا، ولذلك جعل من الزواج الثاني أمر مشروع، أما الزواج الثالث، فلم تحرمة البازيلكا، ولكن كان له ضوابط وأحكام تخص الكنيسة وحدها، وهي التي تقره أو ترفضه، وعندما آل الأمر لليو السادس، أقر قوانين الزواج كما وضعها بازل، وحرم الزواج الرابع، بل وأعتبره جريمة، وأضاف ليو لما أقره بازل، منع اتخاذ المحظيات، واعتبر ذلك مخالفا للشريعة المسيحية.

وكان ليو قد تزوج في حياة بازل من ثيوفانو إحدى قريبات والدته إيدوكيا مرغما، وانجبت ثيوفانو طفلتها إيدوكيا، التي توفيت بعد فترة قصيرة، فاعتزلت ثيوفانو في أحد الأديرة حتى ماتت، وتزوج ليو من زوي صديقة طفولته، ومحبوبته الأولى التي منعه والديه من الزواج بها، غير أنها ماتت بعد عام واحد من الزواج 889م، وكان ليو في حاجة لوريث للعرش، فتزوج للمرة الثالثة عام 900م من إيدوكيا، ورغم معارضة الكنيسة للزواج للمرة الثالثة، إلا أن ليو أصر بعدم مخالفة ذلك لقوانين الإمبراطورية، التي سمحت بالزواج الثالث للضرورة، وعلل زواجه للمرة الثالثة، بأن قواعد البروتوكول البيزنطي تستلزم وجود إمبراطورة في الإحتفالات الرسمية، وفي استقبال الوفود إذا كانت تضم نساء، فاضطر البطريك لمباركة هذا الزواج وقام بتتويج إيدوكيا، التي توفيت أثناء وضع طفلها الأول عام 901م، ولحق الطفل بأمه بعد أيام.

وكان ألكسندر شقيق الإمبراطور، وشريكه الإسمي في الحكم لا ينجب، وكان على ليو البحث عن وريث للعرش، فاتخذ ليو إحدى فتيات القصر كمحظية، مخالفاً بذلك القانون الذي وضعه بنفسه بمنع اتخاذ المحظيات، وبالفعل وضعت زوي محظية الإمبراطور طفلاً ذكراً عام 905م، هو قسطنطين السابع فيما بعد، ووقع الخلاف بين الإمبراطور وبطريك القسطنطينية، إذ كانت مشكلة ليو تنحصر في اعتراف الكنيسة بابنه وتعميده، وقد وافق البطريك نيقولا على ذلك، غير أن أعضاء المجلس الكنسي رفضوا بالإجماع، استمرت محاولات ليو مع الكنيسة لتعميد نحو عام، أهمل خلاله ليو كل شئون الإمبراطورية، وانصببت همومه على حل مشكلة الطفل، حتى تم الاتفاق على إبعاد زوي الأم عن القسطنطينية، وعدم تفكير الإمبراطور من الزواج بها، وتم ذلك بالفعل، وقام البطريك نيقولا بتعميد الطفل في كنيسة آيا صوفيا بداية عام 906م، واختار له اسم قسطنطين.

وبعد تعميد قسطنطين الطفل بيومين أو ثلاث، أرسل ليو وفد أعاد زوي للقصر الإمبراطوري، فقد كان يريد للطفل أن يكون تحت رعاية والديه، كما أنه كان يريد أن يجعله ابناً شرعياً، ولذلك أصر على الزواج من زوي، ولم يجد من بين رجال الدين من يوافق على ذلك، وظل يبحث لفترة حتى عثر على رجل دين أجاز له ذلك، وقام بتزويجه، وقام ليو بنفسه بتتويجها إمبراطورة، ثم توج ابنه قسطنطين إمبراطوراً مشاركاً عام 911م، فأصبح للإمبراطورية ثلاث أباطرة شرعيين، ليو السادس، ألكسندر، قسطنطين السابع.

قسطنطين السابع (912-959):

بعد وفاة ليو السادس عام 912م، تولى الإمبراطورية ألكسندر، وشاركه في العرش قسطنطين السابع الذي كان في بداية عامه السابع، وبالطبع تولى ألكسندر الوصاية على قسطنطين، وقام على الفور بطرد زوي من القصر، ونقض شروط الصلح الذي عقده شقيقه ليو مع سيمون ملك البلغار، فاستغل سيمون الفرصة وجهاز جيوشه للزحف على القسطنطينية من جديد، غير أن ألكسندر سرعان ما توفي عام 913م، فتشكل مجلس وصاية على الطفل، وعادت زوي والدة قسطنطين السابع للقصر.

تميزت هذه المرحلة بالصراع بين أعضاء مجلس الوصاية على الإنفراد بالسلطة، بينما كان خطر البلغار يقترب، فجمعت الإمبراطورة زوي الجيوش وأمرتهم بالتصدي للبلغار، ولكن تعرض الجيش البيزنطي لهزيمة كبيرة، وحاولت التفاوض مع سيمون ملك البلغار لفض الحصار، فوافق على شرط أن يتزوج قسطنطين السابع من ابنته، فرفضت زوي ذلك العرض، ونتيجة لذلك الرفض، أصر كل طرف على موقفه، حتى حل الشتاء واضطر سيمون للعودة بقواته لقضاء الشتاء في بلغاريا، والعودة مع بداية الربيع، ووطوال تلك الفترة كان صراع الأوصياء مستمر، حتى فاز على الجميع رومانوس ليكابينوس أحد قادة البحرية البيزنطية، فتولبى الوصايا على الإمبراطور الطفل، ومع بداية وصايته عمل رومانوس على تدعيم مركزه، فقام عام 919م بتزويج قسطنطين من ابنته هيلانة، فرفعه قسطنطين إلى مرتبة القيصر، وفي عام 920م رفعه مرة أخرى إلى منصب الإمبراطور المشارك، فأصبح رومانوس ليكابينوس شريكاً لقسطنطين في حكم الإمبراطورية، وفي عام 922م توفيت زوجته، فوجد بذلك طريقاً جديداً لزيادة شرعيته في حكم الإمبراطورية، فتزوج من الإمبراطورة زوي والدة الإمبراطور قسطنطين، وقام رومانوس ليكابينوس بعد أن أصبح يضع يده على كل أمور الإمبراطورية، بعدة إصلاحات داخلية في الإمبراطورية حتى ينول محبة المواطنين، وبالفعل خدم رومانوس ليكابينوس الإمبراطورية ورفع من شأنها، ولكنه عندما تم تتويجه من بطريك القسطنطينية، سارع بتتويج ابنه الأكبر كريستوفر من زوجته الأولى، ثم توج ولديه الأصغر، وبذلك باعد بين قسطنطين السابع وتولي عرش الإمبراطورية، غير أن الأقدار ساعدت قسطنطين السابع، فقد مات كريستوفر الإبن الأكبر لرومانوس عام 941م، وتآمر ولدي

رومانس عليه، فقبضا عليه وقاما بنفيه لكي يخلو لهما العرش، وانتهز قسطنطين هذه الفرصة، وأمر بالقبض على ولدي رومانوس عام 945م، وتم نفيهما، ولم يعد رومانوس نفسه مرة أخرى، وتسلم قسطنطين الثامن عرش الإمبراطورية في احتفال شعبي كبير.

نشأ قسطنطين السابع مثقفا مثل والده، وأهتم مثله بالأعمال الأدبية وبرع في الكتابة والتأليف، وكان قسطنطين قد أنجب ابنه رومانوس، وقام بتتويجه بعد التخلص من أبناء رومانوس ليكابينوس عام 945م، واعتني بتربيته وتثقيفه، وقام بتأليف كتاب في فنون إدارة الإمبراطورية لكي يعين ابنه على أمور الحكم والإدارة، ويكون مرشدا له وديلا في علاقاته الخارجية.

رومانوس الثاني (959-963م):

لم تدم فترة حكم رومانوس طويلا، إذ توفي بعد سنوات قليلة من توليه الحكم، ولم يقم خلال فترة حكمه بأعمال تذكر، وترك أمور الحكم كلها بيد زوجته ثيوفانو، التي أدارت شؤون البلاد، وبحث ثيوفانو بين رجال الدولة عمن يساعدها في تسيير أمور الإمبراطورية، فلم تجد أفضل من الخصي برنجاس، الذي أخلص في رعاية الإمبراطورية والحفاظ عليها، ويعتبر أهم ما قدمه برنجاس للإمبراطورية، هو اختياره للقائد نففور فوكاس قائدا على حملة عسكرية لإسترداد جزيرة كريت من المسلمين، وكان ذلك بداية مرحلة التفوق العسكري البيزنطي، إذ تمكن نففور من دخول الجزيرة، وقام بمذبحة رهينة لمسلمي الجزيرة، وأعادها لحوزة الإمبراطورية البيزنطية، ثم تقدم نففور ببناء على طلب الإمبراطورة ثيوفانو، نحو الشرق، فسيطر على إقليم قليقية 962م، وتقدم منه يستولى على المدن الإسلامية حتى بلغ حلب، ودخلها ولكن صمدت قلعتها، فنهب المدينة وخربها، وتركها عائدا إلى القسطنطينية محملا بالغنائم عام 963م، في ذلك الوقت بلغته أنباء موت الإمبراطور رومانوس الثاني تاركا طفلين هما بازيل وقسطنطين تحت وصاية ثيوفانو.

نففور فوكاس (963-969م):

كانت العلاقة بين ثيوفانو وبرنجاس قد توترت قبل رحيل رومانوس الثاني، وساعد ذلك الوضع نففور على تولي أمور الإمبراطورية، إذ أنه دخل الإمبراطورية منتصرا بعد موت رومانوس الثاني، وكانت الإمبراطورية تعاني من الهزائم لفترة طويلة، فنادى به الجيش امبراطورا، وأيد الشعب هذا الاختيار، فتزوج نففور فوكاس من ثيوفانو، فاكتسب بذلك الحق الشرعي في ولاية العرش، وأصبح كذلك الوصي على الطفلين قسطنطين الثامن وبازل الثاني أبناء رومانوس الثاني.

ورغم الترحيب الشعبي الكبير بنقفور، إلا أن مسألة زواجه السريع من ثيوفانو أغضبت رجال الدين، فاتهموه بالتخطيط مع ثيوفانو للتخلص من رومانوس الثاني، ورفضت كنيسة القسطنطينية الإعراف بذلك الزواج، واتهمت نففور بالإستهتار بأوامر الكنيسة، وكانت شخصية نففور القوية لا تقبل التفاوض حول تلك الأمور، فقر الإنتقام من رجال الدين، فصدر عام 964م قانون بالغاء الأديرة، وقام بطرد الرهبان من جميع الأديرة، ومصادرة أملاكها وأموالها، وأصدر مرسوم بمنع بناء أديرة جديدة، ومنع الأهالي من وقف أموالهم أو عقاراتهم للأديرة أو لرجال الدين، واستخدم نففور الأموال التي صادرها من المؤسسات الدينية في تحقيق انتصارات حربية كبيرة، وخاصة على المسلمين في الجهة الشرقية، إذ خرج في حملة جديدة لمحاربة سيف الدولة الحمداني، أقوى الشخصيات الإسلامية في ذلك الوقت، فاحرز انتصارات كبيرة واضطر سيف الدولة نفسه للهرب، وامتدت حملاته العسكرية لصقلية وقبرص، وتطلبت تلك الحملات أموال كثيرة، وكان قد صادر أملاك الكنائس والأديرة، فتوجه لمصادرة أملاك النبلاء وكبار

رجال الإقطاع، وفرض ضرائب جديدة على المواطنين لتمويل الجنود، فنال غضب كل فئات الشعب الذين استقبلوه من قبل استقبال الفاتحين عندما عاد منتصرا بعد موت رومانوس الثاني مباشرة.

وبعد أن جمع قدرا كبيرا من المال، خرج من جديد في حملة عسكرية على الدولة الحمدانية، وكان سيف الدولة قد توفي، فحقق نقفور انتصار على الجيوش الإسلامية، واستولى على عدة مدن هامة منها حماة وحمص، وغيرها من مدن بلاد الشام عاك 968م، وتقدمت جيوشه حتى استولت على انطاكية أهم وأكبر مدن بلاد الشام 969م وعاد للقسطنطينية منتصرا.

كان غضب كبار رجال الدولة الذين صادر نقفور أموالهم لدعم الجيش قد تفاقم، فاقترحوا عليه غرفته أثناء نومه بمساعدة زوجته الإمبراطورة ثيوفانو، وقتلوه، وكان زعيم المتآمرين يوحنا تزمسكيس ابن شقيق نقفور، الذي أعلنه المتآمرون إمبراطورا.

يوحنا الأول تزمسكيس (969-976م):

أعلن يوحنا أنه تولى العرش ليحفظه للطفلين بازل وقسطنطين أبناء رومانوس الثاني، غير أن الكنيسة رفضت تنصيبه، باعتباره قاتل الإمبراطور نقفور، وحاول يوحنا إرضاء الكنيسة، لينال الشرعية على حكمه، فهو يعلم جيدا أنه قاتل عمه ومغتصب العرش، فأعلن موافقته على الشروط التي يملئها البطريرك مقابل التنصيب، ووجد بطريرك القسطنطينية في ذلك فرصة لفرض شروطه على يوحنا، فاشتراط البطريرك على يوحنا ألا يتم زواجه بثيوفانو قاتلة زوجها، وأن يطردها خارج القسطنطينية، وأن يرد حقوق الأديرة والكنائس التي سلبها سلفه نقفور، بل ويقدم كل ما يمتلكه الإمبراطور السابق نقفور في خزانته الخاصة للفقراء والمساكين، ويقدم جزء منها للملاجيء، وعلى ذلك قام البطريرك بتنصيبه إمبراطورا.

وافق يوحنا على الفور، وأعلن براءته من دم نقفور، وقام بنفي ثيوفانو إلى أحد الأديرة في أرمينيا، وتزوج من ابنة الإمبراطور قسطنطين السابع، حتى يحصل على شرعية في تولى الحكم، وألغى جميع القرارات التي أصدرها نقفور بخصوص الأديرة والمؤسسات الدينية، أما بخصوص أموال نقفور الخاصة، فقد صادرها وقدمها كما اشترط البابا للملاجيء، ووزع جزء كبير منها على الفقراء والمحتاجين، وقد أزعج هذا التصرف أبناء نقفور، فتركوا القسطنطينية ورحلوا إلى إقليم كبادوكيا موطن أسرته، وهناك بدأت ثورة بزعامة برداس فوكاس، للاستيلاء على العرش، بدعم من أسرة فوكاس، غير أن يوحنا تمكن من السيطرة على الموقف، وتقدمت قوات الإمبراطورية فأجهضت الثورة في مهدها.

وقرر يوحنا أن يقوم بحملاته العسكرية ضد أعداء الإمبراطورية، فكانت أول حملاته ضد الروس الذين هددوا الإمبراطورية، فهاجمهم عام 971م، وأقام لهم مذبة كبيرة، وأذل ملكهم، واستولى على جزء كبير من أراضيهم، وأدخل بلغاريا في نطاق الإمبراطورية البيزنطية، وبعد فراغه من حروبه مع الروس، قرر القيام بحملات ضد المسلمين، معلنا أنها الحرب المقدسة، ووضع لها هدف السيطرة على بيت المقدس، وفي عام 975م توجه يوحنا تزمسكيس (معروف في المصادر العربية بابن الشمشيق) نحو أنطاكية التي استولى عليها نقفور فوكاس قبيل مصرعه، واتخذها قاعدة عسكرية، ومركزا لجيوشه، ومنها انطلق نحو مدن بلاد الشام، فسقطت سريعا المدينة تلو الأخرى، فسقطت حلب ثم دمشق، وتوجه يوحنا بقواته نحو القدس، فسقطت الناصرة وطبرية، إلا أن القوات الإسلامية تجمعت من جميع المدن داخل القدس للدفاع عنها، فوجد يوحنا أن يتركها ويستولى على المدن الساحلية، وبالفعل استسلمت مدن الساحل ماعدا طرابلس، واكتفى يوحنا بما حققه من انتصارات، وعاد إلى القسطنطينية، ولكنه مات بعد فترة قصيرة بعد

إصابته بمرض لفترة قصيرة، وعاد حكم الإمبراطورية من جديد لأبناء البيت المقدوني، فتولى الشقيقين بازل الثاني وقسطنطين الثامن حكم الإمبراطورية عام 976م.

بازل الثاني (976-1025م):

انتقل العرش بعد يوحنا تزيمسكيس مباشرة إلى بازيل الثاني وقسطنطين الثامن أبناء رومانوس الثاني، وكانا قد توجا في عهد والديهما، ولذلك حكما كإمبراطورين شريكين، ولم يحدث بينهما صراع على السلطة، فقد كان قسطنطين الثامن لا يميل لتولي السلطة، فترك شئون الحكم لشقيقه بازل، الذي لم يكن مستعدا لانتقال العرش إليه، فعاش الفترة الأولى من الحكم في حياة اللهو، مثلما عاش والده من قبل، ولكنه سرعان ما تدارك الأمر عندما وجد الأخطار تحيط بالإمبراطورية من كل جانب، وأن شقيقه قسطنطين قد انشغل بحياته الخاصة عن أمور الدولة، وبدأت المؤامرات تحاك للإستيلاء على العرش، فساعد بازل نفسه على النهوض من غفلته، وتحمل المسؤولية على الفور، وبدأ بقمع الثورات الداخلية والقضاء على المتآمرين، وبدأ ينظم أمور الإمبراطورية، ويصلح أحوالها الداخلية، ثم اتجه للنظر في العلاقات الخارجية.

كان البلغار قد انتهزوا فرصة مقتل يوحنا الأول، وانشغال الإمبراطورين بازل وقسطنطين بحياتهما الخاصة، وتوغلوا داخل حدود الإمبراطورية، فأرسل بازل إلى **فلاديمير قيصر الروس** يطلب منه المساعدة في وقف الزحف البلغاري على أراضي الإمبراطورية، فرحب فلاديمير بذلك، ولكنه طلب من الإمبراطور أن يزوجه من شقيقته آنا، ونظرا لاستمرار المد البلغاري، وافق بازل على ذلك، وخرج فلاديمير بجيوشه، وحقق نصرا كبيرا على البلغار، وتم عقد معاهدة صداقة بين بازل وفلاديمير، على أن يرسل قيصر الروس ستة آلاف مقاتل كل عام للخدمة في أراضي الإمبراطورية، وأن تزيد الإمبراطورية من امتيازات التجار الروس في القسطنطينية، ورغم أن آنا شقيقة بازل رفضت الزواج من فلاديمير، إلا أن معاهدة الصداقة لم تتأثر بهذا الرفض، وبذلك أمن بازل الجانب الروسي.

أما عن البلغار، فمنذ سيطر يوحنا الأول تزيمسكيس على المناطق البلغارية التي كانت خاضعة للروس، أصبحت بلغاريا تابعة مباشرة للإمبراطورية البيزنطية، خاصة وأن الكنيسة البلغارية كانت شديدة الارتباط بكنيسة القسطنطينية، غير أن صامويل ملك البلغار استغل الفرصة بعد يوحنا، وانتزع الأقاليم التي ضمها يوحنا تزيمسكيس للإمبراطورية، وفي خلال السنوات العشر الأولى من حكم بازل، كانت مملكة بلغاريا بفضل توسعات صامويل قد بلغت أقصى اتساع لها.

ولذلك لجأ بازل للاستعانة بالروس لوقف الزحف البلغاري، وبمجرد أن تمكن بازل من القضاء على الثورات الداخلية، ونظم أمور البلاد، أعد جيوشه وشن حربا على البلغار بداية من عام 986م، فتفقهق البلغار خارج البلقان، غير أن بازل تتبعهم إلى العاصمة تريبادستا (صوفيا)، وقامت قواته بحصارها، وتوالى الهزائم والانتصارات بين الطرفين عدة سنوات، ما تلبث أن تهدأ، حتى تعود مرة أخرى بعد أن تكون جيوش الطرفين قد استعدت لجولة جديدة، حتى كان عام 1001م، انسحب البلغار من أمام جيوش الإمبراطورية، وعادوا لحدود بلادهم القديمة، غير أن المناوشات بين الطرفين استمرت لعدة سنوات أخرى.

حتى كان عام 1014م، تمكن بازل من حصار القوات البلغارية في منطقة وادي سترومون، ولم يجد البلغار فرصة للفرار، حيث كانت جيوش الإمبراطور قد أحكمت الحصار، فتقاتل الطرفان، وتعرض البلغار لهزيمة ساحقة، قتل فيها عشرات الآلاف من الجنود، ووقع في الأسر نحو أربعة عشر مقاتل، وقرر بازل أن يلحق الملك البلغاري درسا قاسيا، حتى لا يعود لمحاربة البيزنطيين، فأمر بتقسيم الأسرى

على مجموعات تتكون كل منها من مائة أسير، وتقييد كل جندي في يد زميله، وأمر بسمل عيون الجنود ما عدا أول جندي في كل مجموعة حتى يتمكن من قيادتهم لبلادهم، وأرسلهم إلى بلادهم على هذه الحالة، وسبب هذا العقاب للجنود حالة من الحزن لم ينساها الأهالي، وأطلقوا على بازل لقب السفاح، حتى عرف في التاريخ بأنه سفاح البلغار، بل أن الملك صمويل ظل في حالة حزن شديد عدة أشهر حتى مات، وتولى من بعده ابنه جبريل، الذي قرر الانتقام من بازل، ولكن قواته كانت ضعيفة فلم تصمد أمام قوات الإمبراطورية، وتعرض لهزائم متلاحقة، حتى سقطت عاصمته برسلاف عام 1018م، ثم أُوخريدا أكبر المدن في البلقان.

لم تقتصر حروب بازل على البلغار فقط، ولكنه أحرز تقدما في الجهات الشرقية، فتقدم في أراضي الدولة الفاطمية، واستولى على بعض مدن الشام، حتى تم توقيع معاهدة بينه وبين الخليفة الحاكم بأمر الله عام 1001م، كما أوقف زحف السلاجقة على أراضي الإمبراطورية، وتمكن من الحفاظ على أرمينيا، وفي الغرب تصدي للأغالبية والنورمان في نفس الوقت.

قسطنطين الثامن 1025- (1028م):

ورغم اهتمامات بازل الحربية، وانشغاله بالحرب في عدة جوانب، أهتم بالشئون الداخلية للإمبراطورية، حتى أصبحت خزانة الدولة عامرة، رغم استهلاك الحروب لقدر كبير من ميزانية الإمبراطورية، وازدهرت الحركة الفنية والأدبية بشكل كبير، وفي عام 1025م، مات بازل دون أن يتزوج، تاركا عرش الإمبراطورية لشقيقه المتوج الإمبراطور قسطنطين الثامن، الذي انصرف لحياته الشخصية، ولم يهتم سوى بالآداب والفنون، ولم يفكر في الاهتمام بشئون الحكم، وكان قسطنطين قد أنجب بنتين، زوي و ثيودورا، ولم يستطع قسطنطين القيام بمهام الإمبراطورية، بل أنفق موارد الخزانة في مهاداة أصدقائه المقربين، وكان قد تجاوز السبعين، وانتبه أن فتياته قد قاربن سن الأربعين ولم تتزوجا، فسارع بتزويج زوي وهو على فراش الموت، فزوجها من رومانوس أرجيروس.

زوي وأزواجها:

رومانوس الثالث (1028- 1034م):

حاول رومانوس الثالث أن يكتسب شعبية كبيرة مثل الأباطرة المحاربين، فقرر اعداد حملة حربية للإستيلاء على بيت المقدس، وكانت خزانة الإمبراطورية منهكة بسبب اسراف قسطنطين الثامن على أصدقائه المقربين، وكان رومانوس في حاجة للمال لتجهيز الجيوش، فلجأ كعادة الأباطرة لتدبير المال من الضرائب، ووضع يده على كثير من أملاك وأموال الكنائس والأديرة، وصادر أملاك بعض كبار الملاك، ومع ذلك قابلت قواته التي أرسلها لبلاد الشام هزيمة كبيرة، واتهمه عامة الشعب بأنه خاض مغامرة عسكرية غير مدروسة، وتلت تلك الهزيمة مجموعة من الكوارث التي كادت تقضي على اقتصاد الإمبراطورية، فتعرضت القسطنطينية والمناطق الشرقية لزلزال قوي عام 1031م، كانت نتيجته مدمرة، وقضى على عدد كبير من سكان المناطق الشرقية، ونتيجة لذلك قلت الأيدي العاملة في الزراعة والتجارة، ومرت القسطنطينية والمناطق التي تعرضت للزلزال للمجاعات والأوبئة.

في تلك الأثناء كان رومانوس منشغل عن زوجته زوي، التي تصادقت مع أحد العاملين في القصر الإمبراطوري، ويدعى ميخائيل، وتم التخلص من رومانوس الثاني بخنقه في حمام القصر.

ميخائيل الرابع (1034- 1041م):

أعلنت زوي زوجها من ميخائيل بعد موت رومانوس الثالث مباشرة، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، وتولى العرش باسم ميخائيل الرابع، غير أن العلاقة بين ميخائيل وزوي تغيرت بعد توليه العرش، إذ كانت أصابع الاتهام تشير إليه لمشاركتها في قتل زوجها الإمبراطور السابق، فتغيرت علاقة ميخائيل معها، فانصرف عنها، وبدأ يتقرب من رجال الدين، ويوجه اهتماما كبيرا للفقراء والمساكين، وعاش حياته في محاولة التكفير عن خطيئته بالاشتراك في قتل رومانوس الثالث، ووضع زوي تحت الحراسة والمراقبة الدائمة داخل القصر الإمبراطوري، وكان ميخائيل يتعرض لنوبات صرع من وقت لآخر، ولذلك كان يرى ضرورة وجود شخص يعينه على أمور الحكم، فكلف أخاه يوحنا طواشي القصر، الذي كان من كبار الخصيان، بمساعدته في إدارة شؤون الإمبراطورية.

كان يوحنا شقيق الإمبراطور يقوم بتصرف أمور الإمبراطورية وحده، واضطر للإستعانة بابن شقيقة له يدعى ميخائيل، وعز على يوحنا الانفصال بين زوي وشقيقه الإمبراطور ميخائيل، فقد كان يتمنى أن يستمر الحكم في أسرته بانجاب شقيقه طفلا، ولكن كان ميخائيل الرابع قد قطع هذا السبيل بانفصاله عن زوي، بالإضافة إلى أن الحالة الصحية لميخائيل الرابع كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم، ولذلك تقرب يوحنا من زوي، وقرب منها ابن شقيقته المدعو ميخائيل، وأقنع زوي وميخائيل الرابع بتبني ميخائيل ابن شقيقته، حتى يظل الحكم في البيت المقدوني، وبالفعل تبنت زوي ميخائيل، ورفع لدرجة القنصل، وسرعان ما مات ميخائيل الرابع، وتولى ميخائيل ابن شقيقته باسم ميخائيل الخامس.

ميخائيل الخامس (1041-1042م):

بمجرد أن تولى ميخائيل الخامس الحكم، قام بعزل خاله يوحنا وأبعده عن القصر، وقابل ذلك رضا عامة الشعب، إذ كان يوحنا قد سخر كل مرافق الدولة لخدمة أسرته، غير أن سرعان ما انقلب العامة على ميخائيل بعد أن قرر إبعاد الإمبراطورة زوي، إذ أمرها بالتزام غرفتها، ووضع عليها حراسة مشددة، ثم أمر بنفيها إلى أحد الأديرة، متهما إياها بمحاولة قتله، فكانت عقوبتها النفي، غير أن هذا الإجراء جر عليه غضب الطبقة الأرستقراطية ورجال الجيش وعامة المواطنين، فقامت ثورة في القسطنطينية تنادي بعزل ميخائيل وعودة زوي سليمة البيت المقدوني، وبالفعل تم القبض على ميخائيل وسلمت عيناها وأرسل إلى أحد الأديرة.

قسطنطين التاسع (1042-1055م):

عادت زوي إلى القصر الإمبراطوري لتتولى الحكم من جديد، غير أن عامة المواطنين نادوا بضرورة وجود شقيقتها ثيودورا لتحكم معها، وكانت ثيودورا قد اختارت حياة الرهبنة بعد موت والدها قسطنطين الثامن، ولم تكن واحدة من الأختين قادرة على تولي الحكم، فأصبح من الضروري أن يتولى الحكم شخص قادر على إدارة شؤون الدولة، فوقع اختيار الطبقة الأرستقراطية على أحد أفرادها وهو قسطنطين مونوماخوس، ولكن كان عليه أن يتزوج أحد الأختين لكي ينال الشرعية في تولي الحكم، وكانت ثيودورا قد اختارت حياة التبتل، فرفضت الفكرة، بينما رحبت زوي التي كانت قد تجاوزت الستين من العمر، فتزوجت من قسطنطين الذي تم تنويجه مباشرة.

كانت العلاقة بين قسطنطين وزوي مثلما كانت علاقتها بزوجيها السابقين، فاكشفت سريعا عزوفه عنها، إذ كانت حياته الخاصة عامرة بالعاشقات، ولم تشأ زوي أن تتخلص من قسطنطين التاسع، بعد كل ما مرت به الإمبراطورية من مشاكل بسبب أزواجها، فسمحت له بمحظية واحدة فقط، عاشت بينهم في القصر، وتدخلت في شؤون الحكم حتى ماتت عام 1044م، غير أن قسطنطين أبدى اهتماما بشؤون

الإمبراطورية، واهتم بجامعة القسطنطينية بالتحديد، وقرب الطبقة المثقفة ورفعهم لأعلى المناصب، وخلص القصر الإمبراطوري من سيطرة الخصيان.

أما زوي، فقد انصرفت عن مباشرة شئون الحكم، وعاشت أعوامها الباقية في صناعة العطور في جناحها بالقصر الإمبراطوري حتى وفاتها عام 1050م، وفي عهد قسطنطين التاسع تصاعدت الخلافات بين كنيسة القسطنطينية وروما في عهد كل من البطريرك ميخائيل كريلاريوس والباب ليو التاسع، الأمر الذي انتهى بالقطيعة الدينية الكبرى بين الكنيستين عام 1054م، وما لبث قسطنطين التاسع أن مات بعد فترة مرض عام 1055م، وآل أمر الإمبراطورية كله لثودورا.